

الفصل الرابع:

تلقي الجنون في منطقة المفاهيم

مدخل: منطقة المفاهيم.

توصيفات الجنون في المدونة الرسمية:

- المستوى الأول: العَرَض.

- المستوى الثاني: الاختلاف.

- المستوى الثالث: الحضور والغياب.

تتمثل أهمية منطقة المفاهيم في كونها: تقدم مفهوم الجنون الرسمي لسائر المنتمين للثقافة، ومن ثمّ تحملهم عليه، وتصنع أفق النظر الذي من خلاله تتناسل طائفة من الممارسات: إنتاجاً وتلقياً، وقبولاً وحظراً، وتشكل ضغطاً هائلاً على المتلقي، وتوجه مستهلكي الثقافة إلى رد فعل واستجابة محددة سلفاً؛ لذلك كانت إحدى وسائل السلطة في تقنين الواقع، وإعادة إنتاج التاريخ ومراقبته في تحولاته وسيورته. ومن يمتلك وجهة النظر فإنه يمتلك حتماً نصاب الحقيقة...

الباحث

مدخل: منطقة المفاهيم

هناك منطقة أخرى فاعلة، يمكن أن نتعرف من خلالها على التلقي العام للجنون في صورة واضحة وجليّة، وهي منطقة المفاهيم، حيث تمارس الثقافة العالمة حضورها المقتن/المعتلن من خلال العلوم المختلفة، في بناء الخطابات والمعرفة وتوزيعها واستهلاكها على نحو محدد.

فمنطقة المفاهيم هي من جهة تمثّل معرفي للتجربة الحضارية/النموذج الثقافي المتجسّد، وهي من جهة ثانية تأسيس لزاوية النظر^(١)، وصياغة لمسافة الرؤية الممكنة؛ ف«المعرفة بأسرها، هي: منظوريّة من حيث طبيعتها الجوهرية؛ أي: إنّ الادّعاءات المعرفيّة

(١) زاوية النظر/ وجهة النظر: موقع نوعي، أو منهج لأخذ الأشياء في الاعتبار وتقويمها، ويصدر عنه موقف أو حكم أو رأي، أو هو: الموقف الفلسفي الذي يتخذه مؤلّف أثر أدبي، أو نظرتة الفكرية والعاطفية إلى الأمور عامّة، كما يُراد بهذا المصطلح في الرواية أو القصة بصفة خاصة ذلك الوجدان أو العقل الذي ترشّح من خلاله أحداث القصص حتى يدركها القارئ. يُنظر: مجدي وهبة وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، لبنان - بيروت، ط ٢، ت ١٩٨٤م (ص ٤٣٠-٤٣١)، وإبراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية، المؤسسة العربية للناشرين المتحدّين، تونس - صفاقس (ص ١٩٥).

وتقديراتها تحدث دائماً في داخل إطار يوفر المصادر المفهومية،
ويُوصَفُ العالم من خلاله ويُفسَّرُ»^(١).

وهذه المنطقة (أي: منطقة المفاهيم) أكثر خضوعاً للتوجيه
والهيمنة - بصفتها اختياراً تاريخياً نسبياً - من منطقة اللغة؛ التي تظل
مفتوحة على المكوّن الثقافي بما فيه من تعددية وتراكم ووعي نوعي،
وأقدر على التمدد والتوغل في سياقات زمنية ومكانية ومعرفية متعددة
ومتجدّدة. لذلك كتب فوكو عام ١٩٧١ م يصف المعرفة؛ فقال: «إنّ
المعرفة لم تخلق لأجل الفهم؛ وإنما لأجل التفسير والحسم»^(٢)؛ «مبيناً
بذلك وهمية الحياض المعرفي، ومشيراً إلى قصور الموقف الفينمنولوجي
الساعي إلى إضاءة بنى الوجود لكشف معناها. ففي المعرفة تتصارع
أهواء ورغبات ومصالح، وعلاقات قوى، فليس مرمى المعرفة هو
البحث عن معنى خفي، وذات متسيّدة، وعن وتيرة تطوّر مستمر،
وعن تجل تدريجي لحقيقة كائنة في المستقبل، أو تراجعاً نحو حقيقة
كائنة في أصل منسي»^(٣).

لكن المفاهيم بصفقتها (أجهزة): قادرة على تمثل نمط الانتظام
المعرفي في الثقافة العالمة، وإعادة إنتاجه في عبارة موجهة ودالة. كما

(١) جون سيرل، العقل واللغة والمجتمع: الفلسفة في العالم الواقعي (ص ٤٠).

(٢) ميشال فوكو، نيتشة: الجنياولوجيا والتاريخ، ترجمة: أحمد السطاتي وعبد السلام
بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، المغرب - الدار البيضاء (ص ٦٣).

(٣) د. عبد العزيز العيادي، ميشال فوكو: المعرفة والسلطة، المؤسسة الجامعية للدراسات
والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، ط ١، ت ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م (ص ٣٢-٣٣).

تتاز بقدرتها على اختزال الظواهر المختلفة وتأويلها، ونقلها من المستوى المثالي^(١) إلى مستوى الرموز، ومنحها القيمة والدلالة المعبرة. وعلى الرغم مما يؤكدته المشتغلون بالإيديولوجيات الكبرى في التاريخ كالماركسية^(٢)؛ من أن المفاهيم تغتني وتتطور من داخل الثقافة نفسها، إلا أن وظيفتها الكبرى تبقى في العمل على انتقاء الأشياء، من وجهة نظر الممارسة والمعرفة.

ومن ثمّ كانت المفاهيم إحدى الوسائل الفاعلة في: شرعة الهيمنة الثقافية، ومنحها القبول والفاعلية؛ فالسلط لا تستمد فاعليتها وقوتها من قدرتها على التأثير فحسب؛ بل تستمدهما من: منطقتها الداخلي، وتماسكها واطرادها، ومن التسليم بها، واستعداد المتلقي للرضوخ لها. وهذا ما ينسجم مع ما كان قد طرحه قرامشي عن نظرية السلطة، التي ذهب فيها إلى «أن السيطرة لا تتم بسبب قوة المسيطر فحسب، ولكنها أيضاً تتمكّن منا بسبب قدرتها على

(١) كل ثقافة مثالية؛ لكن يكون شكلها مادياً ومدركاً في هيئة: عادات ومعارف وصناعات ولغة وصيغ ولوازم لفظية، إذ توجد الثقافة في نظام من العلامات تشير إلى أشياء وأفعال وقوانين وممارسات. وهي تبدو في المؤسسات، وجهود العلماء، والمصطلحات والتأليف العامة في العلوم والمعارف الشائعة، والاعتبارات العرفية والاجتماعية، التي تحكم الخطابات والممارسات؛ فالثقافة تظهر من خلال المفاهيم والعلامات، والذوات التي ترعى تلك الأفكار والمفاهيم وتعيد إنتاجها.

(٢) ينظر: م. روزنتال وب. يودين، الموسوعة الفلسفية، ترجمة: سمير كرم، دار الطليعة، لبنان - بيروت، ط ٣، ت ١٩٨١ م (ص ٤٨٨).

جعلنا نقبل بها ونسلم بوجاهتها»^(١).

وبالنسبة لنا هنا فتمثل أهمية منطقة المفاهيم في كونها: تقدم مفهوم الجنون الرسمي لسائر المتيمين للثقافة، ومن ثمَّ تحملهم عليه، وتصنع أفق النظر الذي من خلاله تتناسل طائفة من الممارسات: إنتاجاً وتلقياً، وقبولاً وحظراً، وتشكل ضغطاً هائلاً على المتلقي، وتوجه مستهلكي الثقافة إلى رد فعل واستجابة محددة سلفاً؛ لذلك كانت إحدى وسائل السلطة في تقنين الواقع، وإعادة إنتاج التاريخ ومراقبته في تحولاته وسيورته. ومن يمتلك «وجهة النظر» فإنه يمتلك حتماً نصاب الحقيقة...

ولما لـ«منطقة المفاهيم» من أثر كبير وفاعل في تكوين صورة الجنون عند مستهلكي الثقافة ومنتجيتها رأيت أهمية أن نقف عليها في الصفحات القادمة ونتأملها، ولنستقي منها التصور المؤسسي للجنون، الذي سيكون هو التصور الأساس والفاعل في الممارسات الثقافية العالمية.

(١) د. عبد الله الغدامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، لبنان - بيروت/ المغرب - الدار البيضاء، ط ١، ت ٢٠٠٠م (ص ١٨).

توصيف الجنون في المدونات الرسمية

نجد أنفسنا في هذا الجانب، أمام أكثر من توصيف رائع تطرحه المؤلفات أو الرموز الثقافيون، تحتل الرؤية المؤسسية للجنون، ويمكن أن نضعها في ثلاثة مستويات بينها اتصال. وهذه المستويات الثلاثة: يكمل بعضها بعضاً، ويفصح بعضها عما يلح إليه الآخر، ويتأسس بعضها على بعض؛ مما يجعلها تبدو كأنها تقدم هذا الفهم الإبستمولوجي بطريقة المقدمات والنتائج:

المستوى الأول: العرض:

يوصف الجنون بأنه: «عارض يغمر العقل»^(١)، أو أنه: «الذي يغطي العقل»^(٢). والمجنون هو «المغطي العقل»^(٣).

(١) جلال الدين السيوطي، معجم مقاليد العلوم، تحقيق: أ.د. محمد إبراهيم عبادة، مكتبة الآداب، القاهرة - مصر، ط ١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م (ص ٢٠٣)، مصطلح رقم (١٦٨٠)، ومحمد عبد الرؤوف المناوي، فيض التقدير شرح الجامع الصغير (١/٥٣١-٥٣٢).

(٢) أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة (١/٤٢٢) مادة (ج.ن.ن)، ومرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس (٥٨/٢٦) مادة (ط.ب.ق).

(٣) محمد بن يزيد المبرد، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: محمد أبو الفضل =

في هذا المستوى يُتلقى الجنون بصفته: (عرضاً)، والعقل (أصلاً). «والعرض هو: الذي يعرض ولا يصح بقاؤه... يدل على ذلك قولهم: عرض لفلان عارض من مرض وصداع؛ إذا قرب زواله ولم يُعتقد دوامه. ومنه قوله عز وجل: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [الأنفال: ٦٧]، وقوله: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّطْرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤]، فكل شيء قرب عدمه وزواله موصوف بذلك»^(١)، ولذلك قيل للدنيا: «عرض حاضر يأكل منها البرّ والفاجر»^(٢).

ومن ثمّ فإنّ التوصيف السابق للجنون يصدر عن وعي بالجنون، ويؤسس أيضاً لطائفة من المفاهيم، التي تنعكس على تلقيه؛ بل تكوّنه. هذه المفاهيم يمكن التنبيه عليها من خلال الوقفات التالية:

- العقل هو الأصل، وهو الأسبق.
- الجنون طارئ على الحياة، وعلى التجربة البشرية.
- كما أن التعبير بالعرض يحتوي على إشارات خفية تمرر وصف

الجنون من خلال تصنيفه:

= إبراهيم، دار الفكر العربي، مصر - القاهرة، ط٣، ت١٤١٧هـ-١٩٩٧م (١٧٦/١).

(١) أبو بكر الباقلاني، الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث، ط٣، ت١٤٢١هـ-٢٠٠٠م (ص١٦-١٧).

(٢) يعقوب بن السكيت، إصلاح المنطق، تحقيق: أحمد شاکر وعبد السلام هارون، دار المعارف، مصر - القاهرة، ط٤، ١٣٦٨هـ-١٩٤٩م (ص٧٢).

- بأنه «حائل بين النفس والعقل»^(١)؛ يمنع من التّعقل^(٢)، وليس مزيلاً للعقل بالكلية!

- العمل على إزالة هذا العارض ومداواته متوقعة؛ لأن العارض «يقبل العلاج»^(٣) أو الإزالة.

- وأنه غير مكتسب ولا مقصود إليه، بل جاء على نحو مجهول! ومن حيث لا يُعلم ولا يُدرى من أين أتى، لذا تقول العرب: «أصابه سهم عرض، إذا جاءه من حيث لا يُدرى من رماه»^(٤) قال يعقوب بن السكيت: في قول الشاعر: «عُلِّقتها عرضاً»، أي: كانت عَرَضاً من الأعراض اعترضني من غير أن أطلبه^(٥). فالجنون إذن: طارئ؛ غير مكتسب، مانع من عمل العقل.

- وكون الجنون عرضاً لا أصلاً، وعارضاً لا دائماً؛ يجعله مستبعداً عن أن يكون خياراً لما هو قائم، أو ما يراد له

(١) الراغب الأصفهاني، مفردات غريب القرآن (ص ٩٩).

(٢) قال محمد الأزهري: «كلُّ مانعٍ منَعَكَ من شُغْلٍ وغيره من الأمراض فهو عارضٌ، وقد عَرَضَ عارضٌ، أي: حال حائلٌ، ومنع مانع»، «وقال اللحياني: العَرَضُ: ما عَرَضَ للإنسان من أمرٍ يجبسه، من مرضٍ أو لُصُوصٍ». تهذيب اللغة (١/ ٢٨٨-٢٩٢)، مادة (ع.ر.ض.).

(٣) - تقى الدين السبكي، إبراز الحكم من حديث رفع القلم، حققه وخرج أحاديثه: كيلاي محمد خليفة، دار البشائر الإسلامية، لبنان - بيروت، ط ١، ت ١٤١٢هـ-١٩٩٢م (ص ٩٨).

(٤) أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة (٤/ ٢٨٠)، مادة (ع.ر.ض.).

(٥) ينظر: محمد الأزهري، تهذيب اللغة (١/ ٤٥٦).

الاستمرار. لكنه في أحسن الحالات - يستدعي الاعتراف به على هذه الصفة في خانة النقص العارض؛ وعلاقته بالعقل تستدعي إلى الذهن علاقة أخرى وثيقة الصلة به في منظومتي القيم والمعارف، وهي: علاقة الباطل بالحق. فالجنون شيءٌ من جنس الباطل؛ لا اشتراكه معه في صفة مركزية مهمة، تجعله غير مؤهل للقبول والاعتماد عليه، وهي سرعة الزوال، أو القابلية للزوال الوشيك بإزاء ما هو ثابت وبقا ومحكم. قال ابن فارس: «الباء والطاء واللام أصل واحد، وهو ذهاب الشيء، وقلة مكثه ولبثه، يقال: بطل الشيء يبطل بطلاً وبطولاً. وسُمي «الشیطان» الباطل لأنه لا حقيقة لأفعاله، وكل شيء منه فلا مرجوع له، ولا معول عليه»^(١).

وكل ما لا ثبات له من القول والفعل عند الفحص عنه فهو باطل^(٢). ونقيضه الحق. والحق يستدعي العقل؛ لأنه من جنسه، كما استدعى الباطل الجنون لأنه من جنسه، فالحق: «يدل على إحكام الشيء وصحته، فالحق نقيض الباطل، ثم يرجع كل فرع إليه بجموده الاستخراج، وحسن التلفيق»^(٣).

(١) أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، (١/٢٥٨)، مادة (ب.ط.ل).

(٢) ينظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (ص ٥٠)، ومحمد عبد الرؤوف المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق: د. عبد الحميد صالح حمدان، عالم الكتب، مصر - القاهرة، ط ١، ت ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م (ص ٧٠).

(٣) أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة (٢/١٥)، مادة (ح.ق.ق).

وكل فعل أو قول صدر بحسب ما يجب، في الوقت الذي يجب، بالكيف الذي يجب، فهو حق^(١)...

- هذا الفهم يستدعي من المجتمع تجاه المصاب بالجنون المساعدة والمساحة. ولكن في الوقت ذاته يتم تصنيف الجنون وما ينتج عنه ضمن دائرة الزائل = الباطل، ومن ثمّ فلا يلتفت إليه ولا يعتد به، أو بعبارة ابن فارس «لا مرجوع له، ولا معوّل عليه»^(٢).

- العارض يشمل ما كان حقيقياً أو حكماً (ثقافياً) بحيث يحول بين العقل وبين أداء وظائفه؛ فالمخمور، والغضبان، والغيران، والشهوان، والمدهوش، والخائف، والمضطرب، والعاشق، والمنشغل بشيء أو المتعلق به، المنخلع مما حوله، والخارج على سمت مجتمعه وما يألّفونه، يصح فيه - من الموقع المؤسسي - أن يوصف بالجنون، لوقوع العرض الذي يغمر العقل ويغطيه، أو الحائل الذي يحول دونه، ولو لم يكن الموصوف به عليلاً على الحقيقة!

وفي المستوى الثاني يتحدد معنى «غمر العقل» أو «تغطيته»، وذلك من خلال سياق المخالفة لأفعال العقلاء.

(١) ينظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (ص ١٢٥)، مادة (ح.ق.ق).

(٢) معجم مقاييس اللغة (١/ ٢٥٨)، مادة (ب.ط.ل).

المستوى الثاني: الاختلاف:

في هذا المستوى الثاني يوصف الجنون؛ بأنه:

- «اختلال العقل بحيث يمنع جريان الأفعال والأقوال على نهج العقل إلا نادراً»^(١).

- «ذهاب العقل لآفة، ومظهره جريان التصرفات القولية والفعلية على غير نهج العقلاء»^(٢).

- «اختلاط العقل بحيث يمنع وقوع الأفعال والأقوال على النهج المستقيم إلا نادراً»^(٣).

فهذه التعريفات تصنف الجنون؛ بأنه: آفة، واختلال، واختلاط:

يغيّب العقل / يمنع العقل / يذهب به. وبما أن العقل كما أسلفنا

(١) علي الجرجاني، كتاب التعريفات، تحقيق: غوستاف فلوجل، مكتبة لبنان، لبنان - بيروت، ط ١، ت ١٩٨٥ م (ص ٨٢-٨٣)، والقاضي عبد النبي نكري، دستور العلماء أو جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، عرب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص، دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، ط ١، ت ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م (١/ ٢٨٢). وعبيد الله الحنفي، شرح التلويح على التوضيح في أصول الفقه، تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ١. ت ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م (٢/ ٣٤٨). وسعد الدين التفتازاني، شرح التلويح على التوضيح لمن التفتيح في أصول الفقه، مطبعة محمد علي صبح، مصر - القاهرة، ب.ط.ت. (٢/ ١٦٧).

(٢) زين الدين بن نجيم: فتح الغفار بشرح المنار، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر - القاهرة، ط ١، ت ١٢٥٥ هـ - ١٩٣٦ م (٢/ ٨٥).

(٣) محمد عبد الرؤوف المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف (ص ١٣١).

نظام، فإن الجنون مانعٌ من استقامة التصرفات على ذلك النظام/
النهج القويم = المسلم به.

والعقل نهج واحد- كما تذكر التوصيفات- يجمع عليه المجتمع؛
لأنه اختيار ثابت ومحكم ومتطابق؛ قرين للحق «لدورانه على
استقامة»- كما يقول الراغب الأصفهاني^(١)- والجنون متعدد ومبهرج
كالباطل؛ ف«إن الحق واحد، والباطل كثير بل الحق بالإضافة إلى
الباطل كالنقطة بالإضافة إلى سائر أجزاء الدائرة وكالمرمى من
الهدف»^(٢). وهي صورة تكشف عن العلاقة بين الجنون والعقل،
وبين الهامش والمتن، والبؤرة والمجال.. وتبين نسبة أحدهما للآخر؛
فالعلاقة بينهما علاقة النقطة بالدائرة، والرمى بالهدف!

لكن هذه العلاقة لا تأتي من زاوية النسبية والاختيار- كما
تظهر للمتأمل - بل تأتي منحازة من خلال أداة «الإكراه» الخطابية،
وامتلاك «الحقيقة» المعرفية والأخلاقية، لذلك ترتبط بالحق والباطل
كجهاز قيمي أخلاقي ومعرفي؛ ومن ثم فليس كل الدائرة تصلح أن
تكون موقعاً للنقطة، ولا كل الهدف يصلح أن يكون محلاً للمرمى.
وكل ما في الأمر أن الانحياز وقع إلى اختيار موضع النقطة؛ كما
كان الانحياز إلى اختيار موقع المرمى من الهدف، وبذلك لا تكون

(١) المفردات في غريب القرآن (ص ١٢٥).

(٢) المفردات في غريب القرآن (ص ١٢٢)، وينظر: الفيروزآبادي، بصائر ذوي
التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق: محمد علي النجار وعبد العليم
الطحاوي، المكتبة العلمية، لبنان - بيروت، د. ط. ٢/ ١٢٩، ٤٧٣.

العلاقة هنا هي علاقة الممكن بالمتحقق، والخيارات الثقافية الواسعة والمتعددة بالانحياز الضيق والمحدود. بل على عكس ذلك هي علاقة محدّدة ومعينة، ومن ثم فهي ليست ملكاً للتجربة الفردية، ولا للحظة الزمنية؛ بل هي (أي: العلاقة) ملك للجماعة التي تملك حق الاختيار، وتعطي الأشياء قيمتها، ولذلك كان مجنوناً كل: «من لم يستقم كلامه وأفعاله»^(١)، على «نهج العقلاء» في أقوالهم وأفعالهم، بغض النظر عن حقيقة هذه التصرفات أو قيمتها الموضوعية^(٢).

للعقل نهج، أي: طريق مسلوكة بين محفوظ متوقع؛ يخالفه الجنون وينحرف عنه. وكأن الجنون بهذا لا حقيقة له في ذاته، ولكن حقيقةه تأتي من خارجه، أي من مخالفته لعالم العقلاء وأفعالهم، وأنه يحتكم في ذلك لما وضح واشتهر من الخبرة والتجربة؛ فـ«النهج»؛ بما هو: طريق عامر^(٣)، مذل وواضح^(٤)، لا يكون إلا بكثرة الطرق، واعتياد

(١) علي الجرجاني، كتاب التعريفات (ص ٢١٦).

(٢) المراد بالموضوعية هنا: الحقيقة والواقع كما هو، أو كما يبدو بمعزل عن أحكام الإنسان وأفكاره ومشاعره، ينظر: إبراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية (ص ٣٥٩)، ود. جلال الدين سعيد، معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، دار الجنوب للنشر، تونس، ط ١، ٢٠٠٤م (ص ٤٥٦)، مصطلح برقم (١٩٦).

(٣) ينظر: القاسم بن سلام، غريب الحديث، تحقيق: د. حسين شرف، مراجعة: عبد السلام هارون، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، مصر - القاهرة، ط ١، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م (٤/١٧٥)، مادة (ن.ه.ج).

(٤) ينظر: إسماعيل الجوهري، الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية (١/٣٤٦)، ومرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس (٦/٢٥١) مادة (ن.ه.ج).

الارتياح، وبذلك يكون الوضوح، ويتحقق الإشهار. ويقصد به: الوجه الواضح الذي جرت عليه ممارسة الناس^(١)، وفي هذا الفهم: تقريرٌ للتعريفين السابقين في المستوى الأول، حيث قدما الجنون بصفته عَرَضاً، و«العرض: ما لا يقوم بذاته بل بغيره»^(٢).

والتعريفات جميعها في الحزمة تحتكم في تحديد الجنون والحكم به إلى معيار واحد، وهو بحسب ما تنص عليه: نهج العقل / نهج العقلاء، لأنه النهج المستقيم - كما وصفه المناوي^(٣) - فتحديد الاستقامة: الصواب / الخطأ، والفضيلة / الرذيلة، والمقبول / المستهجن، من اختصاصات العقل؛ فلا معنى للاستقامة إلا به.. و«كل أمر لا يحضره العقل يظهر فيه الخطأ والزلل»^(٤). ومن ثمَّ وصف الجنون بأنه «اختلال القوة المميزة بين الأمور الحسنة والقييحة، المدركة للعواقب بأن تظهر آثارها وتتعلل أفعالها، إما لنقصان جبل عليه دماغه في أصل الحلقة، وإما لخروج مزاج الدماغ

(١) ينظر: أبو البقاء الكفوي، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية (ص ٩١٣).

(٢) زكريا بن محمد الأنصاري، الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة، تحقيق: د. مازن المبارك، مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، الإمارات العربية - دبي، ط ١، ١٤١١هـ - ١٩٩١م (ص ٧١)، وأبو البقاء الكفوي، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية (ص ٦٢٦).

(٣) ينظر: التوقيف على مهات التعاريف (ص ٢٥٦).

(٤) أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، تحقيق: فيلب حتي، د. ف.، مكتبة الثقافة الدينية، مصر - القاهرة، ط ١، د. ت (ص ٨٥).

عن الاعتدال بسبب خلط وآفة، وإما لاستيلاء الشيطان عليه، وإلقاء الخيالات الفاسدة إليه، بحيث يفرح ويفزع من غير ما يصلح سبباً»^(١).

والتعبير بنهج العقلاء أو نهج العقل يقتضي الاعتراف نظرياً بـ: وجود أكثر من نهج، وأن المعيار المعتمد هو النهج (المختار) المذلل المعروف (= الطريقة المشتهرة - السائدة)، فهو يحصر العقل في نهج واحد وطريقة واحدة، هي الطريقة السائدة والمستمرّة، ويضبطها كثرة الطرق المستلزم للوضوح والظهور، وليس للجنون حقيقة ثابتة بل يتمثل في مخالفة ذلك النهج بكيفيات غير محددة ولا معتادة.

وهذا يعني أن العقل يتمثل في: المشاهد والواضح والممارس (الظاهر - المشهور - السائد)، والجنون يأتي من كونه نزوعاً إلى غير الواضح، وغير الظاهر، وغير الثابت وغير المطروق (الخفي - المغاير)، ما يجعل من تحديد هويته^(٢) بالرجوع إليه في ذاته غير مجدٍ. وهذا يدل على أن الجنون يتحدد من خلال التجربة الاجتماعية والثقافية، أو بلغة أكثر تعقيداً من خلال سياقات السلطة الفاعلة في المجتمع والثقافة خلال مرحلة/ مراحل من التاريخ، التي تسعى

(١) أبو البقاء الكفوي، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية (ص ٣٤٩).

(٢) الهوية: حقيقة الشيء، التي تميزه عن غيره، وتحقق له وحدة تجمع الأشباه وتنفي المختلف، لذلك «تسمى أيضاً وحدة الذات». مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي (ص ٢٠٨)، المصطلح رقم (١٠٨٤).

لتعميم النماذج وتحقيق الانسجام والتشابه؛ لأنه لا يوجد موقع آخر يملك الحق في الحديث عن الجنون ووصفه. وهنا يتأكد مرة ثانية مسألة أسبقية «العقل» على تجربة الجنون، وامتلاكه الحق في دفع الوجود المختلف إلى الجنون. ولذلك يأتي تعريف الجنون - هنا في هذه التعريفات جميعاً - من الثابت فيه، وهو: «مخالفته» السائد.

المستوى الثالث: الحضور والغياب:

تفصح التوصيفات في هذا المستوى عن دلالات المفاهيم السابقة، وتأتي بصفتها نتيجة لها، أو نتيجة للفهم الذي صدرت عنه! وهو ما تعبر عنه بعض المدونات حين تعرف الجنون بأنه:

- «زوال الشعور من القلب مع بقاء الحركة والقوة في الأعضاء»^(١).

- «زوال الاستشعار من القلب مع بقاء الحركة والقوة في الأعضاء»^(٢).

(١) شمس الدين الرملي، نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، ط ١، ت ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م (٦ / ٣٨١)، ومحمد الغمراوي، السراج الوهاج على متن المنهاج، دار المعرفة للطباعة والنشر، لبنان - بيروت، د. ط. د. ت (١ / ٣٨١)، ومحمد الشربيني، الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع، دار الفكر، لبنان - بيروت، ط ١، ت ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م (٢ / ٤٢٠)، وينظر: زكريا الأنصاري، فتح الوهاب شرح منهج الطلاب، دار الفكر، لبنان - بيروت، د. ط. د. ت (٤ / ٢١٣).

(٢) محيي الدين النووي، كتاب المجموع شرح المذهب للشيرازي، تحقيق: محمد نجيب المطيعي، مكتبة الإرشاد، السعودية - جدة، ط ١، ت ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م (٢ / ٢٥).

ويُقصد بزوال الاستشعار أو الشعور غياب الإدراك^(١). وغياب الإدراك يعني أن المجنون عاجز عن إنشاء التواصل مع محيطه، فهو منبت عنه. فالمجنون رهن لعالمه ومعتقداته، غائب عما حوله، عاجز عن التواصل معه والإحساس به، ولذلك كان المجنون في عمية دائمة، لانفصال أدوات الاستشعار لديه عن عملية الإدراك.

والتوصيف في هذا المستوى يكشف عن تموضع الجنون؛ إذ يقدم الجنون من خلال إشكال: الوجود والعدم - الحضور والغيبية، فهو حاضر وهو في الوقت ذاته غائب! وهو موجود وهو في الوقت نفسه معدوم! وهذا الحضور: مادي مجرد من الاستشعار والمعرفة. وهذا الحضور الجسدي ليس حضوراً ضعيفاً، بل حضوراً صاحباً موصوف بالحركة وبالقوة، أي: تجسد حقيقي للجسد المادي وللأعضاء، لكن مع انتفاء أثرها ونفعها.

والحضور الجسدي دون شعور/ إدراك سيكون حضوراً ناقصاً: يتصف بالعجز، وبالتمزق و«الانفصام»^(٢) بينه وبين الواقع من

(١) أبو بكر الدمياطي، حاشية إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، ط١، ت١٤١٨هـ - ١٩٩٧م (٣/٣٨٢). وقال: «وقوله: يزول به الشعور، أي: الإدراك من القلب، لكن مع بقاء الحركة والقوة في الأعضاء».

(٢) الفصام - الانفصام: أحد الأمراض العقلية الرئيسية، ومظهره: اضطرابات في موقف الشخص إزاء الواقع، وانفصال بين النواحي العقلية من الشخصية والوجدانية فيها، ولذلك يوصف بأنه: مرض انقسام العقل، وهو أنواع منه ما هو «سليبي» يميل المريض المصاب به للعزلة واللامبالاة، ومنه ما هو «إيجابي» =

جهة، وبينه وبين بعضه بعضاً من جهة أخرى، وسيكون حضوراً صادماً ومخالفاً مزعجاً، ومنقطعاً عمّا حوله.. ولذا تسعى المجتمعات إلى السيطرة على ذلك الحضور الناتئ وإخضاعه، بكل السبل ولو بالقيّد، وفرض الإقامة الجبرية على المجنون في المارستان/ السجن.

إنّ الشعور في عرف الثقافة العربية، هو الحد الأدنى من القدرات العقلية والمعرفية، وإذا وصف الإنسان بأنه لا شعور له فإنه يكون حينئذ قد انحط إلى رتبة الحيوان، لأنه بانعدام الشعور تنعدم القدرة على التفكير.

«وليس في الأحياء إلا ما هو شاعر؛ فكل حيّ له شعور بحسبه، وكلما قويت الحياة قوي شعورها»^(١). فالإنسان والحيوان مطلقاً موصوفان بأنهما كائنات ذات شعور؛ لكن يمتاز الإنسان بأنه تصدر عنه حركات ثلاث: فكرية وقولية وفعلية. والحيوان لا تصدر عنه إلا حركة فعلية مكانية؛ عن طلب منه وعن شعور بحسبه، ولكن تنتفي عنده: الحركة الفكرية، والحركة القولية، وتبقى الحركة الفعلية المكانية. وأما النبات فإنه لا يوصف بالعلم ولا بالشعور؛ لأنه لا

= يميل معه المريض إلى الهياج والصياح، وتعثره الهلوس. ينظر: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، معجم علم النفس والتربية، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، مصر - القاهرة، ط ١، ت ١٩٨٨ م (١/٩٤)، د. لطفى الشربيني، مراجعة: د. عادل صاق، معجم مصطلحات الطب النفسي (ص ١٦٤).

(١) أحمد بن تيمية: الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح، تحقيق: د. علي بن حسن ابن ناصر وآخرين، دار العاصمة للنشر والتوزيع، السعودية - الرياض، ط ٢، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م (٣/٢١٣).

إرادة له فحركته عن غير طلب منه^(١)، فانعدام الشعور هو - في حقيقة - الأمر انعدام لمعنى الحياة!

ولذلك عدّ أبو هلال العسكري: «الذمّ للإنسان بأنه: لا يشعر أشد مبالغة من ذمه بأنه لا يعلم؛ لأنه إذا قال: لا يشعر؛ فكأنه أخرجه إلى معنى الحمار؟! وكأنه قال: لا يعلم من وجه واضح ولا خفيّ. وهو كقولك: لا يحس، وهذا قول من يقول: إنّ الشعور هو أن يدرك بالمشاعر. وهي: الحواس، كما أن الإحساس هو الإدراك بالحاسة»^(٢).

فالمشاعر هي: البوابة الموضوعية الأولى للإدراك، ولكن لا يترتب على الاستشعار (الإدراك بالمشاعر) تحقق العمل العقلي، ولذلك قيل إنّ: «القوة الناطقة»^(٣) لا تدخل تحت المشاعر إلا بضربٍ من التّكلف»^(٤).

(١) ينظر: الإمام محمد الغزالي: معارج القدس في مدارج معرفة النفس، دار الآفاق الجديدة، لبنان - بيروت، ط ٢، ١٩٧٥م (ص ٣٨).

(٢) أبو هلال العسكري: الفروق (ص ٨١-٨٢).

(٣) القوة الناطقة يراد بها: القوة التي يعقل بها الإنسان، وتكون بها روّيته، وبها يقتني العلوم والصناعات، ويميز بين الجميل والقيح. (ينظر: أبو نصر الفارابي، فصول متزعة، جمع وتحقيق: فوزي النجار، دار المشرق، لبنان - بيروت، ط ١، ت ١٣٩٠هـ - ١٩٧١م (ص ٢٩).

(٤) أبو البقاء الكفوي، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، لبنان - بيروت، ط ١، ت ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م (ص ٥٣٧).

في هذا المستوى تنتقل التوصيفات إلى دائرة القيمة بصورة قاطعة أكثر من الوصف المحايد! ونقصد بالانتقال إلى القيمة: تحول توصيف الجنون من «التحديد» و«التعيين» إلى إرسال الأحكام، التي تجعل من فعل الشيء أو من عدمه قيمة فاعلة في السلوك.

فالقيمة: طريقة في الوجود! أو في السلوك، تعترف بها جماعة على أنها مثال يحتذى، وتجعل الأفراد، الذين تُنسب إليهم مرغوباً فيهم، أو شأنهم مقدر خير تقدير^(١). وبذلك تكوّن في نهاية المطاف علامةً مائزة، قادرة على إنتاج الدلالة الثقافية.

إنّ التوصيفات السابقة تعين القيمة وتوجه إليها، والقيمة تتمثل في: «الأحكام التي يصدرها الفرد بالترفضيل أو عدم التفضيل للموضوعات أو الأشياء. وذلك في ضوء تقييمه أو تقديره لهذه الموضوعات أو الأشياء. وتتم هذه العملية من خلال التفاعل بين الفرد بمعارفه وخبراته، وبين ممثلي الإطار الحضاري الذي يعيش فيه، ويكتسب من خلاله هذه الخبرات والمعارف»^(٢).

وبما أن القيمة سمات أخلاقية تتحدد ثقافياً بأنها مرغوبٌ فيها، فهي تشكل حقائق أساسية في البناء الاجتماعي، ومبادئ مجردة وعامة

(١) ينظر: د. مليحة عوني الصغير ود. معن خليل العمر، مدخل إلى علم الاجتماع العام، مطبعة جامعة بغداد، العراق - بغداد، ط ١، ت ١٤٠١هـ - ١٩٨١م (ص ٩٣).

(٢) د. عبد اللطيف محمد خليفة، ارتقاء القيم: دراسة نفسية، سلسلة عالم المعرفة برقم (١٦٠)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط ١، ١٩٩٢م (ص ٥٩).

للسلوك يشعر أعضاء الجماعة نحوها بالارتباط الانفعالي القوي، كما يوفر لهم مستوى للحكم على الأفعال والأهداف خاصة^(١)...

والقيمة تدرج ضمن المعتقدات التي يصعب تفكيكها؛ ولذلك تتسم بقدر من الاستقرار النسبي، وتمثل موجهاً للأشخاص نحو غايات أو وسائل لتحقيقها، أو أنماط سلوكية يختارونها ويفضلونها، وتفصح عن نفسها في: المواقف، والاتجاهات، والسلوك اللفظي، والسلوك الفعلي، والعواطف، التي يكونها الأفراد نحو موضوعات معينة^(٢)، وبذلك تتكوّن لها (سلطة) خاصة داخلية (وازع ذاتي) موجه للأفراد، وباعث على فعل السلوك أو الامتناع عنه دون الحاجة إلى العنف الخارجي.

إنّ نفي القدرة على الاستشعار أو الشعور عن المجنون، مع إثبات القوة والحركة للأعضاء؛ يقرر الإشكالية الكبرى لوجود الجنون في الثقافة العالمية، كما يقرر عبقرية الثقافة - كناجز حضاري - في تعاملها مع أشكال الشذوذ المختلفة (= الجنون)، وقدرتها على اختزال هويته إلى قالب (= حيلة) ال(الحضور - الغياب)، فحضوره مادي: عضوي - فيزيائي يوصف بالقوة والحركة، ولكنه على صعيد

(١) ينظر: د. مصلح الصالح، قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعية، دار عالم الكتب للطباعة والنشر، السعودية - الرياض، ط ١، ت ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٠ م (ص ٥٨١).

(٢) ينظر: محمد علي محمد وغريب سيد أحمد وعلي عبد الرزاق حليبي، المجتمع والثقافة الشخصية، سلسلة علم الاجتماع المعاصر، المعرفة الجامعية، مصر - الإسكندرية، ط ١، ١٩٨٣ م (ص ٣٥٦).

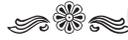
القدرة على الإدراك (الشعور- الاستشعار) وإنتاج المعنى والفكرة والنطق غائب؛ إذ كيف يكون حاضراً من لا نور له ولا شعور؟!

إنّ تنكب الأفراد للمنهج الواضح (المعياري- الاجتماعي) حالة ثقافية واقعة لا يمكن تغييبها! لكن يمكن الالتفاف الثقافي المؤسسي عليها، لتكون هذه الواقعة الثقافية ضلالة دون هدى ولا أثر (= دون خطاب)، وليكون الحضور الصاحب لها حضوراً جسدياً يفقد الحد الأدنى من المعرفة والخبرة؛ لأنه يغيب عنه الحد الأدنى من الاستشعار! ومن ثم فهو: حضور كالغياب لا معنى له، ولا خوف منه على الأنساق الثقافية المهيمنة، وهذا ما يظهر أشد الظهور في السياقات السياسية خاصة، وفي لحظات الاصطدام الثقافية والتاريخية الكبرى، التي تشهد تحولات شديدة في الأنظمة والنماذج، أو تنتهي إلى قطيعة معرفية كبيرة بين مرحلتين (ما قبل) (وما بعد) وستنقذ بعون الله تعالى على نماذج من ذلك في معالجات قادمة^(١).

١. الجنون وجود ولكنه لا ينتمي للوجود الواعي، لأنه وجود يفتقر إلى القدرة على المعرفة. وهو لذلك يخالف معنى «الوجود الثقافي/ الاجتماعي» الذي يحترم مكتسباته، ويراكم تجاربه، ويسترفد خبراته.

(١) نعرض لذلك في الحلقة البحثية الثانية من هذه السلسلة، وسيكون ذلك في مطلع الجزء الثاني بمشيئة الله.

٢. الجنون حضور مجزأً (فصامي)^(١) تنفصم فيه عرى التواصل بين القلب والعقل، وبين المشاعر والحواس، وبين الإدراك والتعبير، وبين صور الوجود وتمثلها، وبين المعرفة العامة والتجربة الخاصة، ولذلك فهو - بالضرورة - مخفوف بالتشظي والتمزق بين الحضور والغياب..
٣. الجنون وجود يتمتع بالحركة والقوة، لكنه وجود ناشز، لا يخضع للنظام؛ فالقوة في الجسد مع غياب القدرة على الرؤية والاستشعار، تعنى الارتباب والإزعاج والمروق والمرادة.
٤. هذا الفهم - أيضاً - على الرغم من دقته ووضوح ما يقول - واسع يستغرق كل الصور الثقافية^(٢) أو العيادية^(٣) للجنون.



(١) يُراجع تعريف الفصام في هذا الكتاب (ص ٢٠٦)، الهامش رقم (٢).
 (٢) الجنون كما قدّمناه في بعده الثقافي.
 (٣) الجنون كمرادف للمرض العقلي بحسب توصيفات الطب النفسي...